مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلد 5 العدد 2 / ديسمبر 2019
ص ص: 209-225

شعرية الخطاب الثوري عند مفدي زكريا.

Mofdi Zakaria's Poetic Revolutionary Discourse

حنان بومالي
جامعة عبد الحفيظ بوالصوف – ميلة (الجزائر)، boumalihanan@yahoo.fr

الاستلام:2017/09/18 القبول:2019/11/11 النشر:2019/12/31

الملخص :

إن الثورة من دون لسان من الشعب ليعبر عنها ويشرح مبادئها، جذورها مجتثة لا تتعدى سطح الأرضية التي تنمو عليها، ومن السهولة أن تتعرض للتشويه والتزييف لأنها لم تتعمق بوجدان إنسانها ولم تمتزج بعقله وقلبه، فلا يوجد التاريخ الذي يسجل الثورة لكن الشعر الصادق يقدم للثورة مالا تقدمه البيانات التاريخية. ومفدي زكريا واحد من هؤلاء الشعراء الجزائريين الذين لم يتقوقعوا حول الوطنية الضيقة التي تحددها هوية بطاقته، وإنما انفتح على قضايا أمته الكبرى، تغنى بآمالها، وبكى آلامها، وحمل همومها على كاهله، وخلدها في أشعاره، وأولاها المكانة الرفيعة، ولعل هذا المقال ينير جانبا مهما من شعرية الخطاب الثوري عند مفدي زكريا من خلال مقاربة تأويلية لنصوص شعرية من ديوانه "اللهب المقدس" .

الكلمات المفتاحية: الثورة، الشعر الجزائري، مفدي زكريا، القصيدة الثورية، استراتيجية.

Abstract:

Revolution, without its people's tongue to express it and elucidate its principles, is rootless and cannot exceed the surface of the ground on which it grows; therefore, it can be easily distorted and falsified because it did not go deeper into man's affect nor did it blend with his mind and heart. No history records revolution; but, true poetry bestows upon the revolution what information fails to grant to history. Mofdi Zakaria is one

المؤلف المرسل: حنان بومالي، **الايميل:** boumalihanan@yahoo.fr

of the Algerian poets who did not bind themselves to narrow patriotism determined by the identity card. He, however, concerned himself with his nation's big issues, extolled its hopes, mourned its pains, was highly occupied with it, recorded it in his poems, and perhaps granted it a high status. This article would probably enlighten an important aspect of poeticism in Mofdi Zakaria's revolutionary discourse via an interpretative approach to poetic texts in his book 'The Sacred Flame'.

Keywords: Revolution, Algerian poetry, Mofdi Zakaria, revolutionary poem, strategy

المقدمة:

اتسم تاريخ الجزائر بخصوصيته و فرادته و نموذجيته، وكذلك الحال بالنسبة للأدب الجزائري الذي كان انعكاسا لهذا التاريخ وتحولاته ووقائعه وأحداثه، والمبدع الجزائري لم ينعم بالاستقرار والطمأنينة في وطنه جراء الاضطهاد والتشريد والمطاردة؛ فقد كان يفرُّ بأسرته وعقيدته ولغته وهويته من موقع إلى آخر ومن دولة إلى غيرها للحفاظ على ذلك؛ ولكن هذه الظروف لم تبقه عاجزا ملتزما الصمت إزاء قضيته، فقد عبّر عن إحساسه بقوميته في شتى المناسبات وكتب الكلمة الرافضة للاستعمار والظلم والقهر في مختلف الأجناس الأدبية.

وإذا كانت ثورة الفاتح من نوفمبر أكبر هزَّةٍ حرّكت السواكن ووضعت كل شيء أمام سؤال صعب، فغيرت كل الحسابات والمعتقدات على المستويين الداخلي والخارجي فقد تزامنت مع طلقات بنادق الثوار واحتراق المدن والقرى وتهدّم الجسور وسقوط الآلاف من الشهداء كل يوم،[1] انطلاق الأصوات التي تدعو إلى التحدي والثورة وإثارة الحماس في النفوس، وإذكاء العواطف وتحريك المشاعر المكبوتة.

ثم إن الكلمة والثورة وجهان لعملة واحدة، إذ الكلمة سلاح فعّال من أسلحة الثورة لا تقل فتكا عن الرصاص، وقد قام الأدباء الجزائريون وبخاصة الشعراء منهم بدور الجندي المقاتل الخفي في ثورة الجزائر، فكانوا الممهّدين لها، والدّاعين إليها والنّاقلين لأحداثها في قالب شعري حافل بالأمجاد والبطولات والتحديات، مشحون بالحس الثوري المعبر عن روح الشعب .

الخطاب الثوري في شعر مفدي زكريا:

إن الشعر يكتب الثورة ويشعلها، كما الثورة تفتح مجال الإبداع والخلق للشاعر فهي تصنع له الأفكار، وتخلق له الرؤى ولا نتخيل أن علاقة كهذه تكون حدودها المنفعة المتبادلة، ذلك أن الشاعر إنسان يعيش مجتمعه وواقعه وآفاقه، بل هو شعلة أحاسيس وموهبة ووعي تؤهله لأن يكون أكثر انفعالا من الإنسان العادي مع ما يطرأ من أحداث وما يستجدُّ من أمور، والشعراء« أكثر حساسية وأسرع انفعالا وأقوى إرهاصا بتيارات الحياة، ومدّها الثوري من غيرهم ».[2]

ولقد شغلت الثورة الجزائرية منذ اندلاعها عام 1954م أقلام المبدعين والأدباء كثيرا، كما أنها أسالت حبرا لكثير من أقلام ومثقفي النصف الثاني من القرن العشرين، ويرجع ذلك إلى « القضايا السامية التي تبنَّتها منذ اشتعال جذوتها الأولى، وكذلك إلى منهجها العميق، وخططها الإستراتيجية، وأبعادها الوطنية والقومية والإنسانية.»[3]

لقد أفاد الشعر الجزائري من الثورة معجما لغويا جديدا لم يعرفه من قبل، بالإضافة إلى تنوع أشكاله وموضوعاته فكانت المعين الخصب الذي نهل منه جملة من الشعراء الشباب آنذاك أمثال: أبو القاسم سعد الله، ومحمد الأخضر السائحي، ومحمد الصالح باوية، محمد الشبوكي، وأبو القاسم خمار، ومفدي زكريا ... وغيرهم، وبخاصة هذا الأخير الذي كان صوت الثورة وترجمانها، إذ تعد قصائده من أهم القصائد تعبيرا عن عمق الثورة وحساسيتها كما « ساهم مساهمة فعَّالة في النشاط الأدبي والسياسي في بلاده بعد أن انظمَّ إلى حزب جبهة التحرير الوطني الجزائري، ودخل السجن عدة مرات نتيجة نضاله السياسي الثوري والشعري.»[4]

إن الشعر الذي نظمه مفدي زكريا يحمل شحنة ثورية يعبر فيها عن روح الشعب الثائر، ويدفع للحماس من أجل مقاومة العدو الغاشم، بل إن موضوع الثورة والجهاد يشكل العمود الفقري لدواوينه الشعرية وبخاصة " اللهب المقدس " الذي يمثل واقع ثورةٍ وتاريخٍ وحربٍ، إذ لا تخلو قصيدة من الحديث عن الثورة وشحن الهمم، فلا يترك موقفا إلا وتحدث فيه عن ضرورة الثورة وحتميتها، فمثلا حين يتحدث عن الجزائر من جانبها الجمالي الشاعري ينتقل مباشرة إلى جانبها الوطني الثوري في قوله:

قلب العروبة لم يعصف بنخـــوتهـــا عسف ولا نال مـــن إيمانها رهـــق.
نادى المنـــادي إلى **التحرير** يدفعهـــا فاستسرخت من قيود الحجر تنعتق.
ثارت على الظلم، مثل السيل جارفة فلا الفيالق، تثنيها ولا الفـــــرق.[5]

ينهل الشاعر من عوالم الثورة ويُهيمن معجمها على ألفاظه نحو: يعصف، قيود الحجر، الظلم، جارفة، الفيالق... مما يؤكد أن الشاعر مؤمن بأن الثورة هي القضية الأساسية لتحقيق الحرية، وأنها ليست حلما مستحيلا، إذ أنها مثل السيل تجرف كل ما في طريقها مهما كانت قوته. و يتردد هذا المعنى حين يشيد بقوة الدولة الجزائرية وعظمتها وأنها رسالة أزلية حرَّرَها الشعب ووقَّعَها الرب فيقول :

وقل الجزائر ...! واصغ إن ذكر اسمها تجد الجبابرة ساجدين وركـــــعا!.
إن الجـــــــــزائر في الوجود رســـالة الشعب حررها، وربك وقـــــعا!
إن الجـــــــــــزائر قطـــعة قدســـية في الكون لحنها **الرصاص** ووقعـــا!
وقصـــيدة أزليـــة، أبيـــــــــــــاتها حمراء، كان لها (نفمبر) مطلعا!
نظمت قوافيها الجماجم فـــي **الوغـــــى** وسقى النجيع رويها فتدفـــــعا.[6]

هذه صورة مجنحة أقرب إلى السماء منها إلى الأرض، يبدو عليها أثر المبالغة لكنها مبالغة مستساغة، لأنها ليست نتيجة لافتعال وتهويل، بل نتيجة فوران الإحساس العارم بالحب والفداء، فالجزائر عند مفدي كيان مقدس أثيري يمتزج فيه الواقع بالخيال، والحقيقة بالنظرة المتسامية الشاعرة.[7]

يتحول هذا الحب للوطن وهذه الثورية إلى مفاخرة بأبناء شعبه الذي « ثار على غاصبي أرضه وحمل أبناءه المجاهدون السلاح دفاعا عنها، وذودا عن دينها ولغتها بقيادة جبهة التحرير... ويشيد بالبطولات والتضحيات الجسيمة التي قدمها الثوار واثقا أن البقاء لهم والموت للمستعمرين وإن طال المدى، فحياة الشعب تعادل حياة الحق والعدل والكرامة » [8] فيقول مادحا أبناء الجزائر، مُشِيدًا بقوتهم وثوريتهم :

وفتية هرعـــوا للشرق يعضدهم إن يصعقوا، فكأن الكون ينصعق
والشعب، يسبح للعليا على دمه وللتـــبرع **بـــالأرواح** يستـــــبق
لم يثنه دون إدراك المنى رهق وإن هم، أُحْرِقُوا بالنار، أو شنقوا[9]

إن الشاعر ممتلئ قلبه بفيض الإيمان بالنصر، ومشبع بروح التفاؤل، لذا يعْمِدُ إلى هذا الأسلوب الوصفي لأبناء الجزائر، وهو نوع من الوعيد لفرنسا التي مارست أبشع السياسات القهرية ضد الشعب الجزائري الذي يريد أن يبعث الأمل من قمم الجبال ومن أعماق الوديان .

ولما كانت الثورة في الشعر ليست موضوعا بقدر ما هي موقف يقفه الشاعر من مختلف القضايا، وطابع خاص يطبع به شعره، وإن كانت تلك القضايا في مجملها قضايا وطنية[10]، فإن مفدي زكريا لم يكتف في ديوانه بتصوير الثورة وإنما تعدَّاها إلى الحديث عن التركيبة البشرية لفرسان جيش التحرير الذين وصفهم بالكواسر رجالا ونساء، مبينا أنهم خليط لجميع فئات الشعب من كهول غايتهم الشهادة من أجل النصر وشباب حالهم حال النسر الذي يسعى للطريدة لا تهمه النتائج، ونساء تحدَّتِ المستعمر ولبَّت النداء فكانت إلى جانب الرجل جناحا لا يستطيع التخلي عنه:

أنا بنـــت الجزائر أنا بنت العـــرب.
يوم نادى المنادي ودعا **للكفـــاح**.
قمت أحمي بلادي وتـــركت المزاح.
وصدقت **جهادي** وغدوت الجناح.[11]

إنها امرأة غير عادية، فهي التي تلهب النار في صفوف الرجال وتبعث في نفوسهم الشجاعة و البسالة، كما تستنهض الهمم وتدعو الرجال إلى التسابق والتسارع نحو العدو؛ فهي شعلة للنضال الملتهب ومنارة للتضحيات اللامتناهية :

في صفوف **القتال** أنـــــا ألهب نـــارا
من أعالي الجـــبال أنـــــا أدعو الدارا
في معالي النضـــال أنـــــا كنت المنارا
وتركت الرجـــال في جهادي حيارى.. ! [12]

إن إكبار مفدي زكريا لكفاح المرأة وإجلاله لها ولثوريتها مردُّه إلى الحرمان الذي كان يعانيه في السجن، مما دفعه إلى استرجاع ذكريات الأنس والصفاء وتجسيدها في لوحات متكاملة لا تخرج عن إطار المتعة و الرضا، فتتوالى صور اللقاء التي تنتقي لأرضيتها كل جميل ومثير من « اتخاذ رمل الشاطئ فراشا وثيرا، وأصداء الموج العربيد لحنا ومن موج يداعب زورقا يلاحق الشمس، ثم الغروب

وظهور الشفق ثم طلوع النجم الذي يحرسهما وهما ساهران متسامران في ليل يشبه الشاعر في كتمانه للأسرار وفي صفات أخرى »[13] فيقول :

يا فتنة الروح، هل تذكرين فـــتى ما ضره السجن، إلا أنه ومـــــق ؟
هل تذكرين، إذا ما الحظ حالفنا إليك اهتف يا سلوى، فنتـــــفق ؟
أم تذكرين، ولحن المـــوج يطربنا إذ نفرش الرمل في الشاطئ ونعتنق ؟
المـــــــوج ينقل في أصدائه قبلا يندى لها الصخر، حتى كاد ينفلق !
نسابـــق الشمس، نغزوها بزورقنا فيسخر المـــتوج منا كيف نلتحق.[14]

وعندما يبسط الليل أجنحته وينام من في السجن تهيج المواجد في صدره فيتذكر الأحبة، وترفرف روحه منسابة خارج السجن لتحلق فوق ربوع الوطن وتسرح بين أبناء جلدته وملته الذين أبهروا العالمين، وطأطئوا هام الآخرين بثورتهم :

ولقد بهرت العالمين وطأطـــأت يا **ثورة** التحرير دونك هـــام.
وتقمصت فيك الجزائر، وانبرى شيخ يحارب في الوغى، وغلام
وجيوش مضت يـــد الله تـــز جـــيها، وتحمي لواءها المعقودا
من كهول يقودها الموت للنـــ صر، فتفتك نصرها الموعـــودا
و شباب، مثل النسور ترامـــى لا يبالي بروحه، أن يـــــجودا
وشيوخ محنكين كـــــــــرام ملئت حكمة ورأيا ســـــديدا
وصبايا مخدرات تبـــــاري كاللبوءات، تستفز الجنـــــودا.[15]

في هذه الأبيات يستعمل الشاعر الحرب النفسية التي كانت من وسائل إنجاح الثورة الجزائرية على الرغم من علمه بقوة الجيش الفرنسي، وأنه كان على أعلى مستويات التأهب والتنظيم ولم تكن عملية مواجهته سهلة أبدا، لكن وصف الشاعر فرسان جيش التحرير وقوتهم وحنكتهم وذكائهم يظهر العدو أقل شأنا وأضعف قوة .

إن زرع فكرة الثورة في النفوس أمر ضروري لاسترجاع الحقوق ومواجهة الطغيان لذا يحرّض مفدي على تنفيذ فكرته بالتركيز على الأساس الإيديولوجي لنجاحها وهو"الإسلام " الذي يمثل العقيدة الراسخة للشعب الجزائري والحصن المنيع الذي احتمت به واعتمدته في تعبئة الجماهير بالحماسة ونفخ روح التضحية في النفوس:

دعا التاريخ ليلك فاستجابا (نفمبر !) هل وفيت لنا النصابا ؟.
وهل سمع المجيب نداء شعب فكانت ليلة القدر الجـــــوابا ؟ .
تبارك ليلك الميمون نجــما وجل جلاله، هتك الحـــــجابا !.
زكت وثباته عن ألف شهر قضاها الشعب، يلتحق الســـرابا.[16]

تشيع أصداء العاطفة الدينية الممتزجة في نفس الشاعر بالعاطفة الوطنية، لما يراه من قدسية ثورة التحرير، لأنها جهاد في سبيل الله، فشبه ليلة اندلاع الثورة بليلة القدر، وذلك هو سحر البيان لأن « كلمة المبدع المناضل هي ضمير الشعب ووجدانه»[17]

لقد أشعل فتية الجزائر نار الثورة ليحرروا الوطن، كما هزت جبهة التحرير الشعب فهب يجري إلى غاياته البعيدة مصرا على المقاومة من واقع التعلق بالأرض، والأمل في التحرر، لأن الثورة لا تتأرجح أمام أفق مسدود، وإنما ممتدة إلى المستقبل:

ولعلع من (شلعلع) ذو بيـــان فأنطق فوق (جرجرة) الجعابـــا.
وشبت من ذري (وهران) نار رآهـــــا (برج مدين) فاستجابـــا.
جهاد دوخ الدنيـــا وألـــــــقى هنالك في سياستها اضطـــــرابا.
وزلزل من حيا صيدها فرنسا وأوقع في حكـــــومتها انقلابـــــا.
وأوفدت الرصاص ينوب عنها يناقش غاصب الشعب الحسابا .[18]

في ليلة الفاتح من نوفمبر المباركة، هذه الليلة الفريدة لعلع صوت البارود من "جبل الشلعلع " فتجاوبت معه جبال " جرجرة " وأطلقت هي الأخرى الجعاب، وشبت في ذرى" وهران " نار الثورة، فاستجاب لها " برج مدين " ليكون الجهاد الذي دوّخ الدنيا قاطبة وزلزل سياسة فرنسا الغاصبة وكشف عن ناظريها النقاب.[19]

لقد جعل مفدي التحريض على الثورة محورا رئيسا في قصائده، والتي يعرض فيها الأوضاع العامة في الجزائر وعلاقاتها مع العدو؛ إلى أن يصل إلى نتيجة حتمية الثورة وأن الأرض لا يحررها إلا أبناؤها، والصمود هو الوسيلة المثلى، ولا تنفع فيه إلا التضحيات لأن المحتل عنيف ولابد من مواجهته بالعنف :

ثورة تملأ العوالم رعـــــبا وجهاد يذرو الطغاة حصيدا .
كم أتينا من الخوارق فيـــها وبهرنا بالمعجزات الوجـــودا .
واندفعنا مثل الكواسر، نرتا ـــد المنايا ، ونلتقي البارودا.[20]

ولا يدع ابن تومرت(مفدي) موقفا إلا وأشاد فيه بقوة الجيش الجزائري، وشدة وطأته وسداد رأيه ومنطقة السليم، فهو يسير على هدى من مخططات مجلس الثورة الحصيفة هذا المجلس الذي « يحوي أعضاء ذوي رأي سديد ونظر بعيد صهرتهم الآلام وعلمتهم التجارب وأكسبهم طول الجهاد حصافة وحكمة، وزادتهم أعوام المحنة الطوال صلابة وقوة.»[21]

يحدوهم للنصر (مجلس **الثورة**) أركانه، صهـــــــرتهم الآلام !
وحَبَاهم طول الجهاد حصافة وزكت بهم في المحنة (الأعوام) .
وأنا لهم صدق الضمير كرامة وسما بهم في (الطامحين) مرام [22].

وينهج هذا النهج في شعره، فلا تقرأ إلا الرفض لوسائل التحرير اللينة، ولكنه عندما يرفض يحضر البديل، وهو في الحالات كلها يحمل القوة والعنف، واسمع إليه وهو يقرأ عليك هذه اللغة المدفعية التي يرى فيها البيان كل البيان:

وهزت " **ثورة** التحرير " شعب فهب الشعب ينصب انصبابا .
تنزل روحها، من كل أمـــر... بأحرار الجزائر، قـــــد أهابا.[23]

ثم إن ثورة الجزائر لم تقم إلا بالاتحاد بين إرادة الله وإرادة الشعب، فالله – عزوجل– يأمر الشعب أن يكون حربا على المستعمر الذي تجاوز الحدود، وعاث في الأرض فسادا، والشعب يطلب من المولى – عزوجل– أن يكون عونا له في ثورته تلك على الظلم والطغيان، وكانت النتيجة قرارا من الطرفين، أحدث في هيئة الأمم المتحدة اضطرابا لم تشهده من قبل، وفوق هذا زلزل فرنسا ودوَّخَها :

وقال الله : كن يا شعب حـــربا على من ظل لا يرعى جنابا !
وقال الشعب:كن يا رب عـــونا على من بات لا يخشى عقابا !
فكان وكان، من شعـــب ورب قرارا أحدث العجب العُجَابا ![24]

إن مفدي لم يؤمن إلا بالقوة ولا يرى الحرية إلا في السلاح، ولا يؤمن إلا باستعمال الرصاص ولغة القنابل وأضحت السياسة عنده خدعة وتصنعا ما لم تفوّض أمرها للقوة كوسيلة للتحرر، ولن تعرف الجزائر الاستقلال إلا بتقديم ضحايا وشهداء:

تلك الجزائر.... تصـــــنع **استقلالها** تخذت له، مهج الضحايا مصنعا
طاشت به الطرقات ، فاختصرت لها مهج المنايا، للسيادة مهـــــيعا
وامتصها المتزعمون، فأصـــــبحت شكوا، بأنياب الذئاب ممزعـــا
وإذا السياسة، لم تفوض أمـــــرها للنار، كانت خدعة وتصنـــعا[25]

يتجاوز الشاعر المألوف بالبحث عن لغة بديلة لمحاورة العدو ومحاججته، فيقع اختياره على لغة السهام والكلاص التي تخلص الوطن من براثن الوحوش الكاسرة، ولغة النار هي اللغة الصادقة التي لا تعرف المكر والخداع والجهاد هو النقطة الوحيدة التي يؤثر بها الاستقلال، فتشع منها الحرية، ذلك الجهاد الذي لم يكن يعرف الندوة ولغة الأرقام :

وحقوقنا اعترفوا بها أم أنكروا ... فطريقتنا، لبلوغها الإرغـــــــام
وبلادنا بيد (الكلاص) خلاصها هيهات يجدي (مجلس) وخصام
و**جهادنا**، ما كان قط (لندوة) بصوابها، تتحكم الأرقـــــام ...[26]

وهو إذ يرفض الندوات والمجالس والمخاصمات والمناقشات، إنما يرفضها لأنه يؤمن أن الشعب الجزائري عزيز النفس يأخذ العبرة من التاريخ ليسجل نفسه كريما نقيا عزيزا، يؤمن بأن النصر من الله وأن ثورته التي يخوض غمارها رسالة أزلية وهي ضمير الشعب :

يا **ثورة** التحرير، أنت رسالة أزلية، إعجازها الإلهـــــــام.
لكي في الجزائر حرمة قدسية وبكل قلب في الوجود هيام .
الشعب أنت ضميره و صوابه والجيش، أنت دماغه العلام .
ليس الجهاد، زعامة وثـــــنية إن الجهاد شجاعة ونـــــظام.
ضاق الخناق، على دعاة هزيمة زلت بهم، في **الثورة** الأقــدام.[27]

وما من شك في أن أديبا كمفدي هاجسه فداء الوطن منذ نعومة أظافره، وهدفه التضحية من أجل المبادئ سيكون مصيره المضايقة والاستجواب والاعتقال ثم السجن والتعذيب،[28] خاصة وأن السلطة الاستعمارية لم تألف مثل هذه اللهجة ولم تتعود أن يتطاول عليها جزائري فيخاطبها بمثل هذا الأسلوب اللافح، غير أن السجن لم يغيّر من سلوك مفدي النضالي، ولم ينقص من نشاطه الفكري، وإنما كان فضاء أرحب للتحدي والصبر ومصنعا للمجد والنضال، والإشادة بكل الممارسات الوطنية التي تقود غلى الاستقلال والحرية:

يا " جبهة التحرير " أنت رجاؤنا وعلى يديك إلى المصير زمام...
شقي طريق الخالدين، وسطـــري بـــدم **الشهادة**، فالدماء قوام.
واستنطقي الأجداث، عن أجدادنا تشهـــد لنا في الخالدين عظام .
واستجوبي الأفلاك، عن أمجادـــا تدحض كذابا ، يدعيه طغـــام .[29]

يشيد الشاعر بالنظام الذي يحكم الثورة ويسيرها وهو " جبهة التحرير " لأنه يؤمن بأن عدالة القضية الجزائرية لا تكفي وحدها للانتصار وتحقيق الاستقلال ما دام الاستعمار متعنتا متجبرا .

يعود مفدي ليذكّر من وراء القضبان بأن اعتماد القوة أسلوبا للحديث مع المستدمر هو الحل، لأن الحق وحده لا يجدي شيئا، ولابد من قوة حتمية تحميه وتفرضه على المتعنت المتجبر :

السيف، أصدق لهجة من أحـــرف كتبت، فكان بيانها الإبهـــــــام.
والنار أصدق حجة، فاكتب بهـــا ما جئت، تصعق عندها الأحلام.
إن الصحائف، للصفائح أمـــــرها والحبر **حرب**، والكلام كـــــلام.
عز (المكاتب)، في الحياة (كتائب) زحفت، كأن جذورها الأعلام .[30]

إن البيان كل البيان في لغة القنابل، هذه اللغة الفصيحة التي يسمعها من في أدنيه وقر، و لوافح النيران خير ما يرفع اللوائح لمن في عينيه ركام، وروائح البارود أقوى العطور وأعبقها فهي مسك يشمه من سد الزكام منخريه والحق

عندما ينطق معه الرشاش فإن الوجوه تعنو لهما والأصنام تخر صرعى، ويخضع العتاة المتكبرين : [31]

لغة **القنابل** في البيان فصـــــــيحة وضعت لمن في مسمعيه صمام
و (لوافح) النيران، خير (لوائح) رفعت ، لمن في ناظريه ركـــام
و (روائح) البارود، مسك نوائح سجرت، لمن في منخريه زكام
والحق، والرشاش، إن نـــطق معا عنت الوجوه، وخرت الأصنام .[32]

لقد غرس السجن في نفس مفدي صفة من أهم الصفات التي يتحلى بها المناضلون الثوريون المخلصون، وهي التحدي والصبر ومجابهة السلطات الاستعمارية حيث تتراءى قصائده مقاطع حمراء من التحدي الصارخ والعناد الأبي فإذا كانت اللغات السابقة (لغة الرشاش ، القنابل ، لوافح النيران ..) لم تجُدِ نفعا مع العدو لأنه يتصامم عنها، ولا كتابة اللوائح لأنه يتعامى عنها، فإن القوة تملك من الوسائل ما يجعلها ذات أثر فعال في المستدمر :

غنى بها حر الضمير فأيقضـــت شعبا إلى **التحرير** شمر مســـــرعا
سمع الأصم رنينها، فعنا لـــــها ورأى بها الأعمى الطريق الأنصعا
ودرى الأولى، جهلوا الجزائر أنها قالت: "أريد " فصممت أن تلمعا[33]

ومن المؤكد أنه عندما تتأزم الأوضاع وتزداد جرائم الاستعمار بشاعة ويتصاعد قمعها وما تقوم به من أعمال ردعية، فإنه لا يفيد شيء إلا الثورة التي أُشعل فتيلها واختارت لغة الرصاص التي لايسمح مفدي بالكلام في حضرتها:

نطق **الرصاص**، فما يباح كلام وجرى القصاص، فما يتاح ملام !
وقضى الزمان، فلا مرد لحكمه وجرى القضاء، وتمت الأحكام .[34]

وبهذا يؤكد الشاعر أن السبيل الذي اختاره الشعب الجزائري من بين مجموع الوسائل التي جربها ولم تأت أكلها إلا حنظلا، هو السبيل الذي به سيتحرر ويؤكد أنه لا رجعة فيه، لأن الله قضى به وارتضاه له منهجا، فلا مرد لحكمه مادام القضاء جرى والأحكام تمت، فليس للشعب بعد ذلك أن يغيِّر أو يفكر في التغيير . [35]

ومما لا ريب فيه أن خطاب مفدي لفرنسا، كان موجها في ذات الوقت إلى مختلف الفئات الاجتماعية الجزائرية التي كانت ما تزال مترددة، ولم تتخذ موقفا واضحا من الثورة، يقول لتلك الشرائح بأن العدو سيهزم لا محالة، ومن ثم فإنه لم يعد هناك ما يدعو إلى خشيته، بل إن الواجب الوطني يملي على كل الجزائريين تجاوز مرحلة الخوف والانتقال إلى طور التحدي الذي هو سر الانتصار ومفتاحه:

واجعلي بربروس مثوى الضحايا إن في بربروس مجدا تليـــــــــيدا !!
واربطي ، في خياشم الفلك الدو ار حبلا، وأوثقي منه جـــــــــيدا
عطلي سنة الإله كما عطـــــــ لت من قبل " هوشمين "* المـــــريدا
إن من يهمل الدروس، وينســـى ضربات الزمان، لـــــــن يستفيدا ..
نسيت درسها فرنسا، فلقـــــنا فرنسا **بالحرب**، درســــــا جديدا !
وجعلنا لجندها (دار لقمـــــا ن)* قبورا، ملء الثرى ولحـــــودا [36]

وبهذا لم تبق إلا الثورة شبحا يحوم في الأفق باعتماد لغة الدماء والرصاص والتضحيات، ورفض أي منطق غير منطق القوة والسلاح:

فكم قطعت عهودا، أصبحت حلما حتى غدونا، بغير **الحرب** لا نثــق
حقوقنا، بدم الأحرار نكتـــــــبها لا الحبر، أصبح يعنينا، ولا الورق.[37]

ومع هذه التصريحات المتوالية ضد المستعمر والرسائل المشفرة إليه لا يملك العدو أن يخمد صوت مفدي، لأنه يحمل قلبه وكلمته من سجن إلى آخر، فمن سجن بربروس إلى سجن البرواقية تأييد آخر للثورة وتمجيد لها في ذكراها الرابعة يوم الفاتح نوفمبر :

هذا (نفمبر) قم ! وحي المدفعا واذكر جهادك ... والسنين الأربعا .
واقرأ كتابك ، للأنـــام مفصلا تقرأ به الدنيا الحديثة الأروعـــــا
وأصدع **بثورتك** الزمان وأهــله واقرع بدولتك الورى و (المجمعا).[38]

إن أول نوفمبر ليلة خالدة، هو ليلة القدر الساطعة للأنظار، فيها تجلى اتحاد إرادة الله بإرادة الشعب، ولعلع صوت الرصاص وانطلقت المدافع تهد الظلم والطغيان، رافضة أي تفاوض أو منطق غير منطق النار، فكانت الثورة المسلحة التي حيرت الورى.

ولأن مفدي دخل السجن خمس مرات، فهو يعرفه معرفة الخبير، كيف لا ؟ وقد طبعه بروح التحدي وقوة الموقف حتى لو أفِلَتْ ناصيته، لأن مبتغاه العز كل العز في حما الوطن :

وأنت يا سجن ! لو افلت ناصيتي رأيتني، لخطوط النار أخترق.
لا أبتغي العز إلا في مغامـــــرة إن السماوات للمقدام تنفتق. (39)

ويبلغ التحدي عنده درجة القمة عندما يرسل التحايا من غياهب السجن، ويبعث رسائل يسرى بها بربروس و يغنّيها الليل، ويعزف لحنها وقع السلاسل، وأكثر من هذا صاغ بيانها الشهيد، وقطع القلب بدقاته بحرها، وزكا بها في الخالدين عصام :

هذي ، تحية شاعر يسمو بـــــه في دولة الأدب الرفيع، نظام .
ورسالة صاغ (الشهيد) بيانها وزكا بها، في الخالدين عصام .
أسرى بها من " بربروس " خياله وهفت به لحماكم الأحـــلام .
غنى بها في الليل، يعزف لحـــنها وقع السلاسل ...والرفاق نيام.
والقلب، بالأنات يقطع بحـــرها دقاته: الأوزان، والأنـــــغام .
فعليك يا أرض الكرام تحـــــية وعليك يا أمم السلام سلام .(40)

لقد أثرت التنشئة الدينية لابن تومرت(مفدي) في تكوينه الفكري والشعري، وهو الذي بدأ حفظ القرآن الكريم في أحد كتاتيب بني يزقن وأتم حفظه بمدينة عنابة وهو في السابعة من عمره، حيث تبلورت فكرة الجهاد بمعناها الإسلامي في ذهنه، وجعلته يضحي بنفسه بكل طواعية ورضا، بل وبكل رغبة وحماسة وفي نفسه رعاية عهد النبوة، وترك الذكرى الحسنة عن نفسه بعد مماته :

روحي، وهبتك يا روحي، فدا وطني زلفى إلى الله، لا من ولا مـــــــــلق
وإن جفاني ذوو القربى، فلا عجب إن النبوة في أوطانها خـــــــــــرق

لازلت أرعى لهم عهدا، وإن بقيـــت مثل المدى، من جفاهم في الحشى حرق
سيذكرون، إذا الليل الرهيب سجى وجلجل الخطب ، أنى في الدجى فـــــلق
حسبي، وحسب أناسي، إن غدوت لهم عودا، يعطرهم، ذكري و أحتـــرق .!![41]

إنه يؤمن بأن السجن مهما يكن فضيعا قاسيا لن يحقق مبتغاه منه لسبب بسيط وهو أنه إن استطاع حبس الجسد بين جدرانه العالية وأسلاكه الشائكة المكهربة؛ فما هو بمستطيع أن يحبس الروح حين تنطلق في ملكوت الله سابحة، وكأنها لا تعترف بقانون الزمان والمكان، فهي متمردة عليه متجاوزة إياه[42]

والروح تهزأ بالسجان ساخرة هيهات يدركها، أيان تنزلـــــــــق .
تنساب في ملكوت الله سابحة لا الفجر ، إن لاح يفشيها ولا الغسق .[43]

ويحاول الشاعر أن يعبر عن نفس غريبة موصدة بين جدران الزنزانة، تجسد التحدي والحس الثوري في أروع صوره، رافضة لألوان التعذيب الفظيعة التي يمارسها زبانية السجن من « سياط يلهبون بها أجسام المساجين، وكهرباء يصعقونهم بها، وإغراق في حياض الماء إلى حد الشرق وانقطاع النفس ...»[44] وغيرها من أشكال التعذيب التي تقشعر لها الأبدان، ومع ذلك فإن الإباء الوطني والبعد الثوري يبقى صامدا لا يتزعزع، ثابتا لا يلين:

سيان عندي ، مفتوح ومنـــــــغلق يا سجن بابك، أم شدت به الحلق
أم السياط، بها الجلاد يلهـــــــبني أم خازن النار، يكويني فاصـــطفق
والحوض حوض، وإن شتى منابـــعه ألقى إلى القعر، أم أسقى فانشـــرق
سري عظيم، فلا التعذيب يسمح لي نطقا، ورب ضعاف دون ذا نطقوا.[45]

ترينا الأبيات صورة حزينة لمكان يموج بألوان العذاب والقهر من: سياط، وكي وأحواض مائية، وضيق نفسي وغياب النوم، وظلمة الليل، وخازن النار .. وكل هذه المدلولات تشكل صورة للسجن، لكن مفدي توجَّهَ بها وِجهة أخرى بدا فيها متحديا لا يأبه بالآلام ولا يستشعرها، ذلك أنه يدافع عن مبدأ سام وهو التوق إلى التحرر عن طريق الثورة .

خاتمة:

إن أهم ما يميز قصائد الشاعر مفدي زكريا هو مراهنته على ثبات الثورة وانتصارها دائما، وخذلان القوات الفرنسية واندحارها، ويكفيه فخرا أنه شاعر الثورة الجزائرية من دون منازع، سبَّح بحمدها واكتوى بنارها، وغمس قلمه في دمها ولهيبها المقدس، فكان الصوت والصدى، وكانت أشعاره الحلم والهاجس، والجرح والخنجر وجواز السفر المخضب بالدم الساخن ليسمح له أن يسافر إلى كوكب الخالدين في مقدمة الهوادج، نهل من ماء تصبب فيه دم المقتولين وتنفس من هواء ينسل من خصاص حيطان الزنزانات، وقاتل بقلمه في صف قبل الأول مع كوكبة المحرضين على الثورة.

هكذا عبَّر مفدي زكرياء عن الثورة في قصائده من خلال منظوره الخاص ذلك المنظور الذي لا يؤمن بغير التضحية والفداء طريقا للخلاص من الاستعمار، ولا يعتمد غير المواجهة العلنية أسلوب نضال، إنه لا يقنع بغير الاستقلال التام هدفا ومطلبا والسجن بالنسبة إليه خطوة أولى نحو الحرية والاستقلال، فمن زواياه المظلمة يطلق النظر إلى الأفق الواسع الرحيب ليتحدث عن الجزائر الوطن والأرض، أيَّد الثورة وأحبها وأعتنقها، لأنها تؤدي إلى حب الجزائر والهيام بها، وحب الأرض يقود إلى اعتناق الثورة والإيمان بها، إن الجزائر هي منبع الثورة، والثورة نضال في سبيل الجزائر.

وهو إذ يكتب للثورة؛ فإنه يؤكد أنها ليست حكرا على أولئك الذين تمرغوا في وحل عذابها، واحترقوا بلهيب نارها، واضربوا في أحداثها، فأنتجوا شعرا مضطربا تلمس فيه المعاناة والاحتراق، وهو بالنسبة إليهم المرآة الصادقة التي تعكس واقعهم الحقيقي.

وإنما يمثلها جيل من الشباب المعاصرين يأتي بعد انتهاء الثورة، فيدرك نتائجها الايجابية، ويحصد ثمارها الطيبة، ويتكون لديه الإحساس الصادق والفهم العميق لأسرارها فتكتمل في منظوره الرؤى، وتتضح في ذهنه المفاهيم، جيل من الشباب النوابغ المؤهلين بأعلى المهارات الفكرية والفنية يعيد تشكيل مادة الثورة في قالب حضاري رائع، يجسد قضايا الوطن والهوية والقومية، ويسعى إلى بث روح الوعي والمسئولية وإيقاظ العقول والضمائر وإذكاء نار الثورة الجزائرية المشرقة.

الإحالات والهوامش

1- محمد زتيلي : فواصل في الحركة الأدبية والفكرية الجزائرية . ط 1 .دار البعث : قسنطينة.1984م . ص 77 .

2- إبراهيم رماني: أوراق في النقد الأدبي. ط 1 . دار الشهاب : الجزائر .1985م.ص 33.

3- شريبط أحمد شريبط : مباحث في الأدب الجزائري المعاصر . ط 1 . اتحاد الكتاب الجزائريين: الجزائر.2001م.ص 180.

4- أنيسة بريكات درار : أدب النضال في الجزائر من (سنة 1945م – الاستقلال). المؤسسة الوطنية للفنون الإسلامية. ص 102.

5- مفدي زكريا: اللهب المقدس . ط 3 . وحدة الرغاية : الجزائر . 2000م. ص 26 -27.

6-المصدر نفسه. ص 58 .

7- يحي الشيخ صالح: "أدب السجون والمنافي في الجزائر في فترة الاحتلال الفرنسي (1830م – 1962م)". مخطوط رسالة دكتوراه. معهد اللغة والأدب العربي : جامعة الجزائر. 1993م .ص 218 .

8- حسن فتح الباب: "مفدي زكريا شاعر العروبة والإسلام في الجزائر" . مجلة الأدب الإسلامي . تصدر عن المنتدى الإسلامي . 1419هـ . مج 5. ع 18 . ص 9 .

9- مفدي زكريا : اللهب المقدس . ص 27 .

10- يحي الشيخ صالح : شعر الثورة عند مفدي زكريا " دراسة فنية تحليلية " .ط1 . دار البعث : قسنطينة . 1987م . ص 64 .

11- مفدي زكريا : اللهب المقدس . ص 93.

12- المصدر نفسه . ص 94.

13- يحي الشيخ صالح : أدب السجون والمنافي في الجزائر . ص 198.

14- مفدي زكريا : اللهب المقدس . ص 22-25.

15- المصدر نفسه. ص 14 – 15.

16- المصدر نفسه. ص 30.

17 – حسن فتح الباب : مفدي زكريا شاعر العروبة والإسلام في الجزائر. ص 9.

18- مفدي زكريا : اللهب المقدس. ص 31-32.

19- عبد الله الركيبي : دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث. دار الكتاب العربي: الجزائر. ص 138 .

20- مفدي زكريا : اللهب المقدس. ص11.

21- يحي الشيخ صالح : شعر الثورة عند مفدي زكريا.ص 122.
22- مفدي زكريا : اللهب المقدس. ص 47-48 .
23- المصدر نفسه. ص 31.
24- المصدر نفسه. ص31.
25- المصدر نفسه. ص 32 .
26- المصدر نفسه. ص 50.
27- المصدر نفسه. ص 46 -47 .
28- محمد ناصر : مفدي زكريا شاعر النضال والثورة . ط 2 . وحدة الرغاية : الجزائر 1989م .ص 57 .
29- مفدي زكريا : اللهب المقدس. ص 48.
30- المصدر نفسه. ص43.
31- يحي الشيخ صالح : شعر الثورة عند مفدي زكريا.ص 93.
32- مفدي زكريا : اللهب المقدس . ص 44.
33- المصدر نفسه. ص 58.
34- المصدر نفسه. ص 58.
35- أحمد رحماني: لغة القوة عند مفدي زكريا. مجلة الضاد. ع 8 -9 .1984م. ص 10.
* - اسم محرر الهند الصينية .
* - السجن الذي ألقي به (سان لويس) لما طمع في احتلال مصر .
36- مفدي زكريا : اللهب المقدس . ص 18 .
37- المصدر نفسه. ص 28.
38- مفدي زكريا: اللهب المقدس. ص 57.
39- المصدر نفسه. ص 29.
40- المصدر نفسه.ص 51-52.
41- المصدر نفسه . ص 29.
42- محمد ناصر : مفدي زكريا شاعر النضال والثورة. ص 63.
43- مفدي زكريا : اللهب المقدس.ص 21.
44- محمد ناصر: مفدي زكريا شاعر النضال والثورة. ص 62.
45- مفدي زكريا: اللهب المقدس .ص20.